

منصة القاهرة لابن سعيد الأندلسي (ت 685 هـ) مقارنة أنثروبولوجية

"Manṣat Al-Qāhira by Ibn Sa'id Al-Andalusi (d. 685 AH): An Anthropological approach "

محمد عزاوي¹، أ.د. أحمد مولاي لكبير²

Mohammed Azzaoui, Prof: Ahmed Moulay Lekbir

1 جامعة أحمد درايعية أدرار (الجزائر)، Azz.mohammed@univ-adrar.edu.dz

2 جامعة أحمد درايعية درار (الجزائر)، moulayahmed@univ-adrar.edu.dz

تاريخ النشر: 2025/05/28

تاريخ القبول: 2025/04/05

تاريخ الاستلام: 2025/02/17

الملخص: يلقي هذا البحث الضوء على نص تراثي لابن سعيد الأندلسي (منصة القاهرة) مجتزأ من حلة كاملة حول هذه المدينة من كتاب "النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة"، وفق مقارنة أنثروبولوجية نقف من خلالها على ملامح هذا العلم، وخاصة فيما تعلق منه بالمدينة، كعلم حديث، نظرا لما يكتنزه النص من توصيفات دقيقة لمدينة القاهرة من جوانب مختلفة، ولما يمتلكه صاحب النص من زاد معرفي ودرية أدبية وملكة جغرافية وتاريخية ونظرة ثقافية، صقلتها الرحلة والاحتكاك والمعايشة، وهي مؤهلات تمكن صاحبها من خوض غمار البحث الأنثروبولوجي الميداني كما اشترطه مُنظِّروا هذا العلم في العصر الحديث، كما تجعل نتاجه يجسد التقاطع بين علم الأنثروبولوجيا في جانبه المنهجي والموضوعاتي، والنص التراثي المحاكي لحديثيات مجتمعه وملابسات معيشته وتطوره، بنظرة استباقية. **كلمات مفتاحية:** أنثروبولوجيا، المدينة، ابن سعيد، منصة، القاهرة.

Abstract: This research sheds light on a heritage text by Ibn Sa'id al-Andalusi (*Manṣat al-Qāhira*), extracted from a comprehensive description of the city found in his book *Al-Nujūm al-Zāhira fī Ḥulā Ḥaḍrat Al-Qāhira*. The study employs an anthropological approach to explore the features of this discipline, particularly as it pertains to cities, considering anthropology as a modern science. The text is rich with detailed descriptions of Cairo from various perspectives, reflecting the author's extensive knowledge, literary expertise, geographical and historical insight, and profound vision shaped by travel, interaction, and experience. These qualifications enabled Ibn Sa'id to engage in field-based anthropological research, aligning with the requirements set by modern theorists of this discipline. His work exemplifies the intersection between anthropology's methodological and thematic aspects and the heritage text's representation of the society it describes, its living conditions, and its development, offering a forward-looking perspective.

Keywords: Anthropology, city, Ibn Sa'id, *Manṣat*, Cairo.

المؤلف المرسل: عزاوي محمد، الإيميل: mohazzaoui1980@gmail.com

1_مقدمة:

دائماً ما نرى من خلال البحوث والدراسات ذلك التقارب والتلاقي بين العلوم الحديثة وإرهاصات أو بواردها عند علمائنا الأوائل، قد يعده البعض استباقاً أو إرهاباً أو تنبئاً، وكثيراً ما نجد ذلك في تراثنا العربي، وإن كنا في هذا البحث نقارب بين نص تراثي قديم وعلم حديث، فإن النص في حد ذاته موطئ فكر غني في كثير من جوانبه نظراً لعلو كعب صاحبه وضلوعه في علوم شتى، مما جعله يشكل نقطة تقاطع بينه وبين كثير من العلوم الإنسانية والمناهج البحثية القديمة والحديثة.

الأمر الذي يمكنها من جعل تلك النصوص مجالاً بحثياً خصباً تنشد فيه ضالّتها، تتاولاً منهجياً أو تزوداً معرفياً كمجال للبحث التاريخي والعمراني ... أو التناول الاجتماعي والنفسي ... أو موضوعاً للنقد الجمالي أو مقاربات كالمقاربة السيميائية أو الأنثروبولوجية ... هذا الأخير باعتباره علماً حديثاً أنشأ في بدايته بخلفية استعمارية خدمة للمستعمر حيث كُلف الأنثروبولوجيون بدراسة المجتمعات البدائية تمهيداً لاستعمارها، أو بعد استعمارها من أجل السيطرة وإحكام الطوق عليها، إلى علم يهتم بالإنسان وجعله محورياً للدراسة من نواح عدة، أفرزت مجموعة من المدارس الأنثروبولوجية لها تقاطعات مع مختلف العلوم التجريبية والإنسانية .

ولقد رُمنا أن نتناول ما أفرزه هذا العلم تقاطعاً مع النتاج الأدبي وفق مقارنة منهجية تطبيقية، مرتكزين على ما كتبه ابن سعيد عن القاهرة في كتابه " النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة"، وبالأخص في مقتطف " المنصة " كمجال للدراسة في ضوء ما توصل إليه علماء الأنثروبولوجيا تنظيراً وتطبيقاً. وخاصة في ما تعلق بأنثروبولوجيا المدينة، كفرع وجد فيه الأنثروبولوجيون مخرجاً من ضوضاء جدلية العلم وموضوعه باعتبار أن المجتمعات البدائية تلاشت فلم يعد لهذا العلم بدا. فجاء موضوع الأنثروبولوجيا الحضرية أو أنثروبولوجيا المدينة كبديل لبقائه واستمراره، يحرك البحث تساؤلات مفاده : إلى أي حد استطاع ابن سعيد الأندلسي تجسيد التقاطع بين النص التراثي من خلال منصة القاهرة والبعد الأنثروبولوجي كحقل علمي حديث؟ وما مظاهر هذا التقاطع؟ وفق منهج وصفي تحليلي فرشاً لمادته العلمية حسب النقاط التالية:

مقدمة

ابن سعيد الأندلسي ومنصة القاهرة

الأفق الأنثروبولوجي للنص الأدبي

منصة القاهرة والملاح الأنثروبولوجية

خاتمة

2. ابن سعيد ومنصة القاهرة:

عرفت الفترة الأندلسية من تاريخ الأمة العربية علماء أجلاء في مجالات علمية مختلفة، زادهم التّشوّع الثّقافي والطبيعي للبيئة الأندلسية، والانفتاح على المجتمعات والأجناس المختلفة، تميّزا أسهم في خلق طفرة نوعية على الثقافة العربية في شتى المناحي، علماء منهم من نال حظّه من الشهرة والدُّيوع وبلغ صيته الآفاق فدرست سيرته وانتشرت مؤلفاته بين الدّارسين، ومنهم من لا زال مغمورا رغم غزارة علمه وكثرة تأليفه واعتراف العلماء له بالحُظوة العلمية، إذ لم ينل حظه على قدر مكانته، ومن أمثلة هؤلاء ابن سعيد الأندلسي.

1.2 نسبه:

هو " نور الدين أبو الحسن ،علي بن موسى بن سعيد العنسي، المعروف بابن سعيد الأندلسي، ينتهي نسبه إلى الصّحابي الجليل عمّار بن ياسر" (الاندلسي، 1982، صفحة 3) من العلماء الأندلسيين المغمورين الذين أسهموا في إثراء الحياة العلمية والفكرية بالأندلس وبلاد المغرب والمشرق في القرن السابع الهجري، لما عرف عليه من ترحال وتجوّال، وتشعّبه في مختلف الفنون والعلوم، فهو مؤرخ وجغرافي وفلكي ونحوي وشاعر وعالم بالأدب، وصاحب صلة بالملوك والسلطين.

2.2 مولده ونشأته:

ولد ابن سعيد الأندلسي في "غرناطة مطلع القرن السابع الهجري سنة 610 هـ. بقلعة يحصب (الاندلسي، 1987، صفحة 16) المسماة قلعة بني سعيد ، فيها كانت بداية نشأته التي لم ينقل العلماء شيئا عن تفاصيلها إلاّ ما كان من تلقّي نواة تعليمه الأولى على يد والده الذي أولاه عناية فائقة فسهر على تلقينه مبادئ العلوم بنفسه، مما مهّد له الطّريق ووطّأ له السّبيل لدراسة العلوم المختلفة على يد علماء اشبيلية بعد الانتقال إليها، من أمثال: "الأعلم البطليوسي (ت 646هـ) وابن علي الشّلوبيني (ت 645 هـ) وأبي الحسن بن عصفور (ت 663هـ)" (الانصاري، 1966، صفحة 63)

ونظرا لمكانة عائلته وطبيعة عمل والده في خدمة الأمراء والملوك وكثرة الترحال والتنقل بين ممالك الأندلس فقد أسهم ذلك في اتصاله بعليّة القوم ؛ مجالسةً للأمراء والملوك والوزراء ومخالطة كبار الأدباء والعلماء في نوادي وبلاطات الحكام مما أتاح له الاطلاع على المكتبات العامّة والخاصّة، فقد أسهم ذلك في تشكيل شخصيته العلمية الفذة، وتفتح قريحته الأدبية والتأليفية.

2.3 رحلاته:

ومما اشتهر عن ابن سعيد كثرة ترحاله وتجوّاله شرقا وغربا، في بلاد الأندلس وخارجها، بعضها رفقة والده وأخرى بمفرده بعد وفاته، ولا يتجاوز الحقيقة الدّارس لسيرته إن قال: ما حياة ابن سعيد كلها إلا رحلة واغتراب فكانت رحلته الأولى مع بلوغه الرابعة عشر من العمر، رفقة والده الذي كان من سلك عمّال الخليفة الموحّدي العادل، ضمن كوكبة من علماء الأندلس، ما مهّد له الالتقاء بكثير من العلماء الذين ضمهم الركب، كأبي عمر بن حكم القيطي وأبي المعالي أحمد القيجاطي، كما كانت فرصة لمشاهدة حاضرة الدولة الموحّدية بالمغرب والتعرف على بيئة مغايرة لبيئة الأندلس طبيعة وعمارة وعلمًا وطبائع، قارب مكثه فيها السنتين، استغلها ابن سعيد رفقة والده في جمع المادة العلمية الخاصة بكتاب "المغرب" (الانصاري، 1966، صفحة 66).

وبعد استيلاء بنو الأحمر على كثير من المدن الأندلسية، ومن بينها غرناطة، اتّجه ابن سعيد رفقة والده إلى مراكش ومنها انتقل إلى تونس، بحثا على سعة الحال بعدما ضاقت عليهم أرض الأندلس بما رحبت كغيرهم من العلماء، فأسعفهم البلاط الحفصي بما أفاض عليهم من الحظوة وعلو المكانة، فوَلّي منصب المظالم عند الوزير أبي زكريا، بوصاية من ابن عمه أبي عبد الله بن الحسين بن سعيد الذي كان قد سبقه إلى تونس، وفي هذه الفترة التي قضاها بتونس كانت حافلة بالعطاء، حيث جمع المادة العلمية الخاصة بكتابه (القدح المعلى) وفيها كان لقاءه بابن الأَبّار من كبار الأدباء ومصنّفي القرن السابع الهجري.

ولم يدم الأمر إلا سنتين حتى تكّدر صفو الود بينه وبين الوزير أبي زكريا، بدسيسة من ابن عمه، فاضطر إلى المغادرة مكرها رفقة والده باتجاه المشرق سنة 639هـ، قاصدا أداء فريضة الحج التي عقد نيّتها عند مغادرته أرض الأندلس، فحطّ الرّحال بالإسكندرية حيث ترك والده المنهك من طول السفر، وذهب بمفرده إلى القاهرة التي لم يطب له المقام بها ولم ينل فيها رغبته ومناءه، بل لازال سوء طالعتها يؤرقه كلما مر على ذكرها في مؤلفاته، إذ لاقى فيها من الجفوة وضنك العيش وضيق الصّدر ما فتق قريحته الشعرية للروح بما في خالجه من شعور نحوها ردّا على من دعاه لزيارتها:

وَمَالِي بِهَا رَاحَةً ظَاهِرَةً

يَقُولُونَ سَافِرٌ إِلَى الْقَاهِرَةِ

تُثِيرُ بِهَا أَرْجُلَ السَّائِرَةِ

زِحَامَ وَضِيقٍ وَكَرْبٍ وَمَا

(الاندلسي، 1970، صفحة 25)

ولما اشتدّ المرض على والده عاد ابن سعيد إلى الإسكندرية من أجل تـمريضه، وبقي معه حتّى توفّاه الله سنة 640هـ. ويسرّ الله له لُقيا الأديب الألمعي كمال الدّين بن العديم" لما قدم مصر رسولا من الملك النّاصر

الأيوبي إلى سلطان مصر نجم الدين أيوب " (الاندلسي، 1982، صفحة 6)، فعرض عليه الذهاب إلى حلب بعد أن نال إعجابه، لما رأى منه من سعة علم وحسن مجالسة ومسامرة ومُسحة أدبية فريدة، فسّر ابن سعيد بذلك، إذ فُتح له بلاط صاحب حلب الملك الناصر، ولقي لديه من الحظوة وعلو المكانة حتّى أصبح من أقرب جلسائه وأهل خلوته العلمية والأدبية وفُكّهاته، فطال مُكثه بحلب ومكّنه الناصر من خزائنها، وأولى اهتماما خاصا بمؤلّفيه (المُغرب) و(المُشرق) فاستهوى الجوّ الثّقافي لحلب ابن سعيد ممّا جعله يخلّدها وملكها الناصر في شعره .

ولم يزل ابن سعيد أبا ترحال وتنتّل، " فقصد بغداد سنة 648 هـ ثمّ البصرة، ليلبغ الديار المقدّسة حيث أدى فريضة الحجّ، ليقفل عائدا بعدها إلى تونس سنة 652هـ" (سالم، 2019، صفحة 385) ويتّصل بأمرها الحفصي المستنصر الذي تولّى الخلافة بعد أبيه، وعرف عليه اهتمامه بالعلم والعلماء، فاحتفى به وقرّبه وأنزله منزلة تليق بمقامه، وتيسّر له في بلاطه الالتقاء بعدد من العلماء الأندلسيين الذين لجؤوا إلى تونس في حمى الدّولة الحفصيّة، بعد القلائل وتهاوي الإمارات الأندلسية تباعا، ولكن الوُشاة لم يتركوا للوصال حبلا إلّا قطعوه، فأفسدوا بينه وبين المستنصر حتّى قلاه، ولم يكن لابن سعيد رسول يُعيد الودّ ولا واسطة تردّ الشّقة إلّا نتّاج قريحته فبعث للمستنصر يستعطفه:

يَا عَزَّالاً فِي الْحَشَا مَنْزِلُهُ وَبِعَيْنِي دَائِمًا مَنَّهُلُهُ
لَا تَرَعْنِي بِالْجَفَا ثَانِيَّةً مَا بَقِيَ فِي الْجِسْمِ مَا يَحْمِلُهُ

(التلمساني، 1967، صفحة 273/274)

فجاءت القصيدة خير رسول وأوفى وسيط، جلبت الصّفح وأعادت القُرب والإحسان، والوصل بعد الجفا والهجران. كانت لابن سعيد رحلة ثانية للمشرق، ذكر لها بعض الباحثين أسبابا، من بينها؛ بَقِيَّةُ شيء في النّفس من بلدان أراد زيارتها وحيل بينه وبينها، أو شوقا إلى أصدقاء تركوا في نفسه أثرا بليغا من رحلته المشرقية الأولى من أمراء وأدباء وعلماء فأراد كسر التّحان بهذه الرّحلة، وقيل أنّه طال به المُقام بتونس وهو أخو العصا والراحلة وصاحب تجديد ومخالطة وحبّ استكشاف، فكان قضاء مدة طويلة بتونس مدعاة للرتابة والملل، فعاد إلى دينه وطبعه.

ختم ابن سعيد مسيرة رحلاته بعودته إلى تونس ولم يُورد المؤرخون سنة عودته إلّا ما كان من إثبات وفاته بها وترجيحه على أقوال من ادّعى خلاف ذلك بأنّه توفي في دمشق.

4.2 مؤلفاته:

لابن سعيد مؤلفات كثيرة في فنون شتى، دالة على غزارة العلم وتنوعه وسعة اطلاع، فقد ألف في الجغرافيا والتاريخ والفلك والأدب، وأجاد التأليف مما جعل لمؤلفاته قيمة علمية جلييلة، نوه بها من ترجموا له، منها المحقق المستحق للقراءة والاستفادة، والمخطوط المرجو تحقيقه ودراسته، والمفقود المحتاج للتنقيب والنش، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

بسط الأرض في الطول والعرض، سيرة أحمد ابن طولون، المغرب في حلى المغرب وهو كتاب شارك في تأليفه ست رجال من بني سعيد، رايات المبرزين وغايات المميزين، المطربات والمرقصات، الغصون اليناعة في محاسن شعراء المائة السابعة، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، القدح المعلى في التاريخ المعلى (الخطيب، 1977، صفحة 153).

5.2 وفاته:

اختلف المترجمون في مكان وزمان وفاة ابن سعيد، بين من جعلها بدمشق في شعبان سنة 673 هـ (الكتبي، 1974، صفحة 104)، من أهمهم ابن شاکر الكتبي في فوات الوفيات، ومن جعلها بتونس بعد رحلته الأخيرة لها سنة 685 هـ، منهم المقرئ التلمساني صاحب النفح، والرأي الأخير هو المختار والذي عليه المدار عند معظم من ترجم له بعدهم وقد رجّحه إحسان عباس حين الترجمة له في تحقيق كتاب (نشوة الطرب).

3- المنصة مقتطف من كتاب النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة:

إنّ القارئ لكتاب المغرب في حلى المغرب لا يسعه إلا الاعتراف بأنه يقف على منهجية فريدة في التأليف والتقسيم للكتب، دالة على علو كعب صاحبه ومُنمة على سعة علمه وحسن توظيفه، فلقد أفاد من مكنته في مختلف العلوم في تقسيماته، إذ سمى الأقسام الكبرى للكتاب أفلاكاً، ووزعها على ثلاثة؛ الأول فلك الزهرة، وهو القسم الخاص بمصر والثاني فلك عطار، الثالث فقد اسمه، وجعل تحت كل فلك كتاب، سماه على أنواع الورود، فالأول الإكليل في حلى بلاد النيل، والثاني نفحات العنبر في حلى بلاد البربر، والثالث وشي الطرس في حلى جزيرة الأندلس، وقسم كل فلك إلى ممالك فقسم القسم الخاص بمصر مثلاً إلى ثلاثة ممالك؛ المملكة العليا ويراد بها الصعيد، والمملكة الوسطى ويراد بها منطقة العاصمة، والمملكة الساحلية ويراد بها الوجه البحري، ثم قسم الممالك إلى كور (أقاليم)، ووضع لكل منها اسماً، لم يعرف من الكور المشرقية إلا لذة اللبس في حلى كورة عين شمس، ويشتمل بدوره على خمسة كتب موهي: منية النفس في حلى مدينة عين شمس، والاعتباط في حلى مدينة الفسطاط، والنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، والذي اقتطفنا منه النص موضوع الدراسة (المنصة

(، ورشف القبل في حلى قلعة الجبل، والنفحة الحاجرية في حلى الجزيرة الصالحية. وقد حَقَّق زكي محمد حسن وشوقي ضيف الكتاب الثاني منها وهو " الاغتباط "، وقام الدكتور حسين نصار بتحقيق كتاب " النجوم الزاهرة " (الاندلسي، 1970، صفحة 9/8)

وجعل ابن سعيد لنفسه منهجا في كتابه النجوم الزاهرة، وخطة بنى عليها هيكله مؤزعا ضمنها مادته العلمية، فكان منهجه تصوّرا لطيفا، في نسيج أدبيّ رائق، حيث تمثّل المدينة على أنّها عروس وسمّى الأبواب بمسميات تمّت بصلة إلى مستلزمات العروس؛ المنصة، التاج، والسلّك، والحلّة، والأهداب، وفي كل منها يتناول جانبا معينا للمدينة.

فمثلا تناول في التاج المعلومات التاريخية للمدينة، مع الترجمة لمن ظهر فيها من الأنبياء والملوك والسلّاطين" والسلّك للشعراء والنظاميين من عليّة القوم بالمدينة، والحلّة لمن استحق الترجمة في السلّك وليس له حظ من الشعر والأهداب لأصحاب الفنون الشعرية الأخرى.

أما المنصة موضوع الدّراسة فقد جعلها للمعلومات الجغرافية للمدينة والعمرانية، بكل ما تحمله كلمة الجغرافيا من معنى، من اتّجاهات وتضاريس وتركيبية سكانية وأنشطة اقتصادية وطبيعية وعمرانية، موظّفا ملكته العلمية، ومعاينته الدقيقة الميدانية ومقارناته من خلال استغلال رحلاته لمختلف البلدان، وحسّه الجمالي المكتسب من موطنه الأندلس، ومُكنّته الأدبية وسِعة اطلاّعه، فجاءت المنصة أوّل أبواب الكتاب فيما يقارب الاثنتي عشرة صفحة، ضمنها ابن سعيد معلومات قيّمة عن مدينة القاهرة، حيث ذكر من أمرها على نسق ما لا توجد جملة في كتاب على حد قوله.

ملاصا الإنسان في مجتمعه المَعيش، ناقلا ميدانيا لتلك الحياة متأرجحا بين المركز والهامش، واصفا للشبكات العلائقية بين الإنسان وبيئته، موثقا للمدينة وبنائها وإعادة تشكيلها، وهو ما جعل من النص جذابا للدراسة الأنثروبولوجية.

4_الأفق الأنثروبولوجي للنص الأدبي:

تتجاذب النصّ الأدبي حين الدّراسة مجموعة من المناهج والنظريات والعلوم، كل منها يتناول النص حسب موضوعه وهدفه، فنجد أحيانا النص عينه أو العمل الأدبي يُتناول اجتماعيا ونفسيا وتداوليا انثروبولوجيا، وهنا لابد من وجود حدود فارقة بين كل ذلك، وأبعاد مرجوة وأهداف محددة تخدم كل دراسة، مع مراعاة التداخل والتقاطع أحيانا.

تعد الأنثروبولوجيا علم له علاقات وطيدة وعميقة مع العديد من العلوم الإنسانية والتجريبية، وهذا راجع لطبيعة العلم وموضوعه الذي يفرض أخطبوطيته، فالإنسان الذي هو هدف وموضوع الأنثروبولوجيا، له متعلقات متنوعة فزيولوجيا نفسيا اجتماعيا ثقافيا فكريا علميا، فلذلك نجد من فروع الأنثروبولوجيا؛ "الأنثروبولوجيا العضوية أو الفيزيائية، الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، الأنثروبولوجيا اللغوية والتربوية، وعلم الآثار والأركيولوجيا " (تلوين، 2017، صفحة 32).... وغيرها من المجالات الأخرى.

وان كان الأدب من نتاج الإنسان ويعبر عن ثقافته وبلغته وعن حالاته النفسية والاجتماعية، بل يُعدّ الأدب مُميّزا هامًا للمكونات البشرية المختلفة فهو يعبر عن أصالتها ومكوناتها المتمايزة، فما كان للأنثروبولوجي أن يتجاوز هذا المكون الإنساني المهم.

ومما لا يجب إغفاله أنّ التناول الأنثروبولوجي للنص الأدبي ينبثق من أبعاد داخل النص، والذي يجب أن يتضمن المواضيع التي يرمي إليها، أو هي من اهتمامات الباحث الأنثروبولوجي، كالإنسان، التركيبة السكانية، اللغة والعمران، المركز والهامش، المتعلق الأسطوري، الأديان والمعتقدات والطقوس والخرافات، ويجمع ذلك في شقّه ألعنلقي للمجتمع، وليس كنموذج فردي أو شخصي غير واقعي من وصف الحالات منفصلة عن واقعها الاجتماعي أو كمخيال يتصوره الكاتب، بل يكون النص واقعيًا بعيدا عن التخيل الناقل لتفاصيل حياة الإنسان في إطاره الاجتماعي مندمجا مع أبناء جنسه في تفاعلية بناءة ضمن صورتها الحقيقية، فهنا يكون النتاج الأدبي موضوعا خصبًا للدارس الأنثروبولوجي من جهة كما يمكن أن يُعدّ الأديب من جهة أخرى موثقًا أنثروبولوجيا للمجتمع موضوع النتاج الأدبي.

فالأنثروبولوجيا تدرس الإنسان في إطار حركته الاجتماعية وعلاقاته المتشعبة بينه وبين أفراد مجتمعه وبينه وبين ما يتمثله من عادات ومعتقدات وطقوس، وتطور للبيئة التي يعيش فيها بدائية كانت أو حضرية، وتطوره معها وبنائه لها في إطار ثنائية المكان واللامكان، والحادثة وما بعد الحادثة، استنادا إلى "التوصيف الدقيق للتصرفات الإنسانية في مساقها التاريخي والثقافي من جهة، والمقارنة بأشكال أخرى في الزمان والمكان من جهة أخرى، وهو ما يشكل أساس قدرة التحليل الخاصة بالأنثروبولوجيا " (بول، 2008، صفحة 21) حسب رؤية مارك أوجيه، وبهذا يرتسم لنا الإطار الذي يمكن أن يحدّد تناول النص الأدبي تناولا أنثروبولوجيا .

مع الأخذ بعين الاعتبار الانتقال من الأنثروبولوجيا العامة كعلم استعماري يدرس المجتمعات البدائية من أجل "التحكم فيها وإدارتها بشكل نموذجي سواء سياسيا أو ثقافيا أو عسكريا" (تلوين، 2017، صفحة 24) حسب

رؤية المستعمر، إلى انثروبولوجيا المدينة كبديل بعد انسداد الباب في وجه الأنثروبولوجيا العامة، حيث اتجهت إلى دراسة المدن وتطورها وطرق تشكيلها وإعادة تشكيلها، وتقصّي ذلك في قلب الحدث لا من بؤرة المخيال والتصورات.

5. منصة القاهرة والملاح الأنثروبولوجية:

1.5. ملاح أنثروبولوجيا المدينة:

وهنا سنبدأ بما جاء متأخرا وهو انثروبولوجيا المدينة، وكيف نلج إلى مدينة القاهرة بنظرة أنثروبولوجية واستقراء أبعادها من خلال نص "المنصة"، حيث أن رؤية الأنثروبولوجي للمدينة ليست كفضاء لحياة الإنسان ومسرح لِمَظْهَرات نشاطه المعيشي فقط، بل هي أيضا موضوعا هاما في حد ذاته ينبغي النظر إليه على أنه كائن يَحْدُثُ وينمو ويتشكل، فيُنظر للمدينة من خلال العلاقات بين ساكنتها في مركزها وهامشها، في ثنائيات المكان واللامكان وبين المكان والزمان والتشكيل وإعادة التشكيل، وإن كانت لها علاقة وطيدة بالإنسان وهو المسؤول عن نشأتها وتطورها.

إنّ القارئ لمنصة القاهرة يجد توافقا كبيرا بين النص وما كتبه الأنثروبولوجيين خاصة في حقل أنثروبولوجيا المدينة، فهذه الأخيرة في نظر الباحث الأنثروبولوجي الفرنسي ميشال أجبي "تتعلق من الحياة المدنية المعيشة للمدنيين، من التفاصيل اليومية للأفراد في وضعيات وسياقات مدنيّة وحضرية ملموسة ومعيشة على نحو مباشر.. إلى المدينة في كليتها بوصفها مجموعة من الشبكات المعقدة (لعمشي، 2019)، مع محاولة الاستقراء والتتبّع لنشاط الإنسان ومُتعلقاته في صورتها الكلية التي تمكن من الوصول إلى أحكام عامة.

فجّد ابن سعيد حين يتحدث عن القاهرة كمدينة، يبدأ بالنشأة وتاريخها ودلالة الاسم، وتمثّلها شخصا له هيبته وحضوره، من خلال العمران وإحياءاته، فيرى في القاهرة كيانا متكاملا نشأ نشأة الكائن الحي له أصل وانتماء حضاري وثقافي وسياسي، له علاقات مع كيانات مماثلة؛ فهي كما يتصورها " الحَالِيّة البَاهِرة التي تَقَنّ فيها الفاطميون وأبدعوا في بنائها واتّخذوها قُطباً لخلافتهم، ومركزاً لأرجائها، فُنسي القُسطَاط بعد الاغتيال " (الاندلسي، 1970، صفحة 21)، مُلتَقَتاً تارة إلى المدن المندثرة، وآثارها التي بُنِيَتْ على أنقاضها مدن أخرى أو بجوارها " ولم يبقى الآن اثر لمدينة القطن الطولونية غير جامع ابن طولون وهو خارج عن القاهرة"، وهنا يتقاطع ابن سعيد مع فكرة التشكيل وإعادة التشكيل للمدن التي يرصدها انثروبولوجي المدينة.

فإعادة تشكيل المدن وتغيّر المركز لا يكون اعتباطا، بل هو نتاج عمل دؤوب وتغيّرات ميدانية على مستوى الأمكنة وحركة السكان وتوفير الحاجات وبناء المرافق، ومن خلال المنصة ينقل لنا ابن سعيد حالة من إعادة التشكيل للمدينة وملابس التحولات فيها، فبعد الحديث عن القاهرة وكونها موطن للحكم والسلطنة واعتبارها

مركزاً، لتوفّر المرافق اللازمة للسكان والاستقرار، إذ هي " أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم دثاراً لسكنى الأمراء فيها" (الأندلسي، 1970، صفحة 27)، الأمر الذي أهلها لتكون مركزاً للحكم ومناطقاً للتحصّن، هي المرافق والمنشآت، وكأنه يُنبّه القارئ إلى مدار التمدن والأسس التي يقوم عليها، وما يؤسس لتشكيل وبناء المدن الحضرية، ويضعك في بؤرة التشكيل وداخل عملية البناء لمدينة جديدة وفق تلك الأسس، إذ يتحول مركز المدينة إلى جانب الفسطاط حيث شيدت قلعة الجزيرة ونالت عناية السلطان وجعلها سريراً لحكمه، فتحول إليها الأمراء وعظمت أسواقها، ونزح الناس إليها فاستحقت المركزية وشهدت بذلك ميلاد مدينة جديدة، جرّت بذلك الازدهار للفسطاط الذي كان قبل ذلك من الضواحي.

ومما أورده المؤرخون حول مدينة القاهرة وعدّها من أعظم المدن التي شهدت إعادة تشكيل وبناء وتطور مستمر "الذي تمخض عنه في النهاية مولد القاهرة - قاهرة المعز - طوال ستة قرون، واتسم هذا التطور بإنشاء سلسلة من المنشآت التي قامت بإنشاء المسرح الذي سيجري عليه تطور تاريخ المدينة" (ريمون، 1990، صفحة 4) باعتبار أن المدن لا تقوم إلا على أسس ومقومات متعلّقة الإنسان وهو محور بنائها واليه مدار عمارتها ورسم زخرفة أمكنتها.

ولقد وقف ابن سعيد على الأمكنة مبرزاً أهميتها في المدينة، وتيهانها في ثلاثية المكان واللامكان وخارج المكان الذي رسمه أجبي للتفرقة بين الأمكنة، فتارةً ينعدم المكان بتجميع الهوية وتضييع الثوابت والاستخفاف بالقوانين، ويتصرّم حبل السُّلطة، فتطغى سلطة الفرد على سلطة الجماعة، وهي الحدود الفاصلة بين المكان واللامكان، وإن كانت ضمن الأطر الحدودية للمدينة، أما خارج المكان وإن كانت تُرسم له حدود فهو على الحواف والهوامش، فهي أماكن أخرى مغايرة " أشكال الأماكن التي تكون خارج المكان على الرغم من أنها قابلة للتحديد" (أجبي، 1440هـ، صفحة 70) هذا التحديد الذي يسهل ويسمح بملاحظتها بدقة والبقاء فيها والسعي لفهم ما يقع داخلها استقصاء ووصفاً.

ولقد رصد ذلك ابن سعيد وجلاه في نص - المنصة - حين انتقل بين عوالم المدينة القاهرية بناء وعمارة وثقافة وسياسة وحكما، أماكن أهلة تقيد القوانين والأحكام، خلاف خارج الأماكن التي استوفته بمخالفاتها لأجواء المدينة فتشعرك بالغرابة وتعيش من خلالها المفارقة بين المركزية والهوامش، فتشدّك في مدينة القاهرة " مباني عظيمة جلييلة، الآثار أبصرت في قصورها حيطاناً عليها طاقات عديدة ... والمكان الذي يعرف في القاهرة بين القصرين وهو من الترتيب السلطاني لأن هناك ساحات متسعة للعسكر والمتفرجين" (الأندلسي، 1970، صفحة 24)، فالمشهد العام يوحي بالحضارة والتمدن والسلطة والحكم وأماكن مأهولة، تحدّد معنى المكان بهويته وثقافته ودلالاته،

ثم ينتقل سريعا إلى خارج الأمكنة حيث اللانظام والفوضى فيخرجك من جو المدينة، " وذلك أمد قليل ثم يسير منه إلى أمد ضيق يمر في ممر كدر حرج بين الدكاكين، إذ ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة .." (الاندلسي، 1970، صفحة 24)، كما يصف لك في مشهد آخر موكب السلطان في أحد الممرات الضيقة وقد اعترضت طريقه عربة بقر تحمل الحجارة، أمام موضع طبّاخين، والدّخان في وجه الأمير وثيابه وقد ضاعت هيئة السلطان في ازدحام المارة، ينبئ الأمر بأنك خارج الأمكنة التي يسودها النظام والترتيبات السلطانية. والقوانين والهيئة ومظاهر المدنية والتحضّر، كما ينقلنا ابن سعيد إلى أماكن فارقة حيث انعدام شروط الحياة إلى دروب "ضيقة مظلمة ، كثيرة التراب والأزبال، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة، قد ضيقت مسلك الهواء والضوء . " (الاندلسي، 1970، صفحة 24)

وينطلق ابن سعيد من خلال ملاحظاته الدقيقة واستقراءه للأحداث ومقارنته للمدن والحالات في الزّمن وعبر الزّمن لإصدار أحكاما عامّة حول المدينة دون الالتفات إلى الحالات الفردية، فبعد وصف القاهرة وذكر مشاهداته فيها وما استحسن واستقبح ومقارنتها مع الفسطاط، يحكم فيقول " والفسطاط أكثر أرزاقا وارخص أسعارا من القاهرة والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط لأنّها أجلّ مدارس وأضخم خانات " (الاندلسي، 1970، صفحة 27)

مجسدا التقاطع بين النص الأدبي وعلم الأنثروبولوجيا مع الأنثروبولوجي أجيبي حين يرى "أن عمل الأنثروبولوجي في المدينة هو الانتقال من وصف العوالم الحضرية الصغيرة التي يمكن ملاحظتها على مستوى الأفراد الحضريين إلى إنتاج معرفة أكثر عمومية بالمدينة " (أجيبي، 1440هـ، صفحة 70)، فالمدينة بالنسبة للأديب حيزا تبني فيه الأحداث وتتسج فيه الحبك وتتحرك فيه الشخصيات، ولكن بالنسبة للأنثروبولوجي هي مظهرات للحياة وتفاعلات إنسانية مع الزمان والمكان قابلة للتغير وتحدث التَّغْيِير، وعليه رصد ذلك التغير وبناء أحكام عامة عليه، إضافة إلى نقل معارف وتوثيق حقب، كما يجسّد تقاطعات معرفية وعلمية بشكل أو بآخر.

2.5 البنى والعمران:

وننطلق هنا من فكرة المكان واللامكان التي أطلقها مارك أوجي في أبحاثه عن أنثروبولوجيا المدينة، إذ متعلّقهما الإنسان والهوية والبحث عن الذات، فكل معالم المدينة التي تشكّل هوية الإنسان ضمن مجتمعه المتداخل والمتشعب في انصهاراته واختلافاته هي نفسها التي يطلق عليها المكان في نظر مارك أوجي، وهو الأمر الذي يلفت له ابن سعيد القارئ من خلال المنصة، فهو حين يصف المرافق المشيدة والقصور والمباني يشير إلى

دلالتها على عظمة ومكانة الملوك وممالكهم وقيمتهم وأهميتهم بين الأمم، إذ يقول "إنَّ الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة، وهي ناطقة إلى الآن بالسن الآثار ويستشهد على ذلك بقول الشاعر:

هُمُ الْمُلُوكُ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ الْبُنْيَانِ
إِنَّ الْبِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ شَأْنُهُ أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ

(الاندلسي، 1970، صفحة 23)

واختلفت الأمكنة وتنوعت العمارة والمنشآت وما تُجسده من تشابك العلاقات الإنسانية داخل المدن وخارجها اتساعا وضيقا، والمفارقات بين المناطق من خلالها، وما لها أيضا من أبعاد سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية، ودلالات تاريخية، مأهولة أو خالية، وما لها من أهمية، في تشكيل المدن الجديدة، وإعادة تشكيلها. فالأمكنة تضيف على المدينة كينونتها وهويتها وترسم ثقافتها وانتمائها، وتحدد طبيعة علاقاتها الخارجية والداخلية بين السكان الأصليين والوافدين في سيرورة تفاعلية دؤوبة ومستمرّة، كما أنّها أوعية حية تحمل زخم الحركة والنّظور وتجسّد مظاهر التنوع، وتظل شاهدا تاريخيا ومرجعا أثريا هامًا دالًا على وشائج متينة بين الإنسان والمكان وتلاقح الزمان والمكان والأحداث التي تشكل التاريخ الإنساني.

فالقاهرة المدينة، كما صورها ابن سعيد تحتضن إرثا معماريا زاخرا وفضاءات متنوعة مسرحا لمختلف الأنشطة الإنسانية، طافحة بالإحياءات والدلالات المعرفية والقيم الإنسانية والاجتماعية تؤصّل لمبدأ التغيّر والتطوّر الإنساني فالقصور السلطانية، التي عدها ابن سعيد قي القاهرة وحولها أو أشار إليها في مقارناته، منها القصور السلطانية الدالة على القوة والسلطة، والهمة والعلو وذيوخ الصيت، " إذ الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة " (الاندلسي، 1970، صفحة 23)، وتحكي ذلك بلسان حالها، ومن هذه القصور قلعة الجبل التي كانت مركزا للحكم في القاهرة، وقلعة الجزيرة التي بنيت بالقرب من الفسطاط والتي تحول إليها الأمراء والحكم.

أمّا ما تعلّق بالقصور من أفضيّة ومواد البناء التي استعملت في تشييدها، يبرز ابن سعيد الفوارق بين فضاءات الأماكن الحضريّة والهوامش، فنجد أفضية المدينة توحى بالحضارة والعلاقات الراقية وحضور السلطة، فالإيوان الذي شيّده الفاطميّون في قصورهم على غرار إيوان كسرى بالعراق يجسد النّقاطع بين الحضارات، فقد خصصوه لجلوس الخلفاء والأمراء، كذلك لما سمي (بين القصرين) وهي ساحة لعرض العسكر بحضور المتفرّجين، وريّما هذا من أجل إبراز القوّة وبث الهيبة والرّهبة في نفوس العامّة، وهو ما يشابه اليوم الاستعراضات العسكرية للدول. كما نجد الخانات والقيصريّات والمدارس، والساحات والأزقة.

وفي جانب آخر نجد فضاءات خارجية، كأرض الطبالة وهي مكان خارج القاهرة للنزهة والترويح لخصرتها وجمالها، فكانت مقصد الأمراء وعلية القوم والأدباء، ومن شاكلتها بركة الفيل فهي بركة دائرية، يرتادها الخاصة والعامّة يزدان منظرها ليلا حين يُسرج حولها الزائرون السُرُج كل حسب قدرته، ووصفها ابن سعيد بأبيات:

نَظَرُ إِلَى بَرَكَةِ الْفِيلِ الَّتِي اكْتَنَفَتْ بِهَا الْمَنَاطِرُ كَالْأَهْدَابِ لِلْبَصَرِ
كَأَنَّمَا هِيَ وَالْأَبْصَارُ تَرْمُقُهَا كَوَاكِبٌ قَدْ أَدَارُوهَا عَلَى الْقَمَرِ

(الاندلسي، 1970، صفحة 27)

فالأفضيّة بين داخل المدينة وخارجها، مختلفة عن أفضية الهوامش والضواحي حيث الأزقة الضيقة والأسواق التي يعلو الغبار أجواءها والدخان سماءها وتضيق الأنفس بين جنباتها والبيوت المتواضعة، ويرسم ابن سعيد جانبا من منشآت الهوامش في القاهرة، ميرزا هشاشة البنية وبساطة العمران، وانعدام المرافق المناسبة الملحية لمتطلبات الحيات الكريمة للإنسان، في مفارقة صارخة بين المركز والهامش، فان كانت القصور العظيمة الدالة على عظمة الملك المشيدة بالجبس والكلس، يجدد تبييضها كل عام، القيسارات وسوق الأجناد والساحات العامة، فإنه يقابلها في الضواحي ببيوت من الطين والقصب وحولها أزقة تملؤها الأزيال والغبار، وأسواق اختلط فيها دخان الطباخين بغبار المارة وتكدرت وضاق على الإنسان العيش فيها، ففيها من الكدر " ما تضيق منه الصدور وتسخن منه العيون" (الاندلسي، 1970، صفحة 24) على حد تعبير ابن سعيد.

3.5. ملامح الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية:

يظهر جليا من العنوان تلك المزوجة بين المجالين الاجتماعي والثقافي، وإن كانت تُفرد لكل منهما دراسة عقلية وفقا للتخصّص ومجال الدّراسة، باعتبار المدرستين الأمريكية والبريطانية، ولكن من وجهة نظر الأنثروبولوجيا الحديثة فإنّ تناولهما ليس باعتبارهما حقّلين معرفيين لكل منهما خصوصيته، بل نظرا لمتعلقهما؛ وهو الإنسان وما يحيط به، والذي هو مجال اهتمام الأنثروبولوجي وصميم بحثه، فإنّ الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ضمن هذا المجال هما شيء واحد " تهتم خاصة بالأعمال الإبداعية على رأسها الأعمال الفنية، وكذلك بالرموز، كالأساطير، الطقوس الدينية، التقسيم الطبقي والإيديولوجيات" (تلوين، 2017، صفحة 36).

ومن المسلّمات أنّ الإنسان كائن اجتماعي بطبعه لا ينفك يعيش دون تشكيل علاقات إنسانية واجتماعية مع غيره وعليها يُبنى المجتمع ويكتسب خصوصياته ومن خلال تلك العلاقات المختلفة تُصنع الأنظمة السياسية والبنية الاقتصادية والمعالَم الثقافية التي تحدد السمات الخاصة بكل كيان اجتماعي مدني كان أو بدائي، ولتلتزم -

هنا في تناول الأنثروبولوجي الاجتماعي لما ورد في المنصة، من نقل للحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة - بمراعاة ضوابط ثلاث حددها الأنثروبولوجيون لهذا المقام:

تناول الظواهر الاجتماعية تناولاً موضوعياً بعيداً على الميولات الشخصية.

الدراسة الدقيقة للظواهر ورصدها حِيناً.

التوصل إلى القوانين التي تخضع لها الظواهر من خلال دراستها. (وصفي، 1971، صفحة 161)

والقاهرة كمدينة لها تاريخها وعراقتها وبُنيتها الاجتماعية المحددة لهويتها وانتمائها وإرثها الحضاري ومنتوجها الثقافي الذي تشكل من خلال تلاحقات حضارية أثمرتها الاحتلالات والفتوحات، والتجاورات الجغرافية والهجرات المتبادلة والمقومات الطبيعية، والإنصهارات البشرية والتنوعات العرقية. حيث قدم إلى القاهرة واستوطن أحياءها " الجنود القادمين من القيروان والمهدية؛ وحي كُتامة يأوي فريق البربر، ودَيْلم يضم مهاجرين قادمين من إيران.... كما أقامت قوات من الزُّنُوج العبيد معسكراً خارج باب الزويلة " (ريمون، 1990، صفحة 43) هذا التنوع العرقي والاختلاف الحضاري سيلقى بظلاله لرسم وجه مدينة بخصوصيتها الاجتماعية والثقافية.

إنّ هذا الاختلاف في التركيبة السكانية لمدينة القاهرة يكسبها تنوعاً في مجالات الحياة اجتماعياً وثقافياً ولقد ظهر ذلك على مستوى المعتقد؛ إضافة إلى المكون الإسلامي الفاطمي المؤسس للمدينة نجد الطائفة اليهودية والنصرانية، المندمجة في المجتمع القاهري المتميزة عنه - فيما لاحظته ابن سعيد - باللباس والنشاطات الوظيفية التي يقومون بها، فمما وثقه في المنصة أنّ النصارى في القاهرة كانوا يمتازون في لباسهم بالزّنار في أوساطهم، أما اليهود فكانوا يميزون بعلامات صفراء في عمامتهم، وإن كان لذاك أساس تاريخي حيث أن الحاكم بأمر الله "فرض على اليهود ارتداء ملابس صفراء اللون ومنع ارتدائهم الأبيض" (ريمون، 1990، صفحة 72) في القاهرة، وكانوا في الفسّاط على خلاف ذلك مما يدل على أن القوانين التي كانت تسري في المدينة قد لا تُشدّد عليها في الضواحي، أمّا في الوظائف والأعمال فقد اختصّوا بكتابة الخراج والطب وكانوا يركبون البغال. وضمن هذه التوشّيح الدينية بين الإسلام واليهودية والنصرانية، يتجسد مبدأ الاندماج والمفارقة، إذ يستفيد أفراد المجتمع من خدمات بعضهم البعض رغم التباين والاختلاف في المعتقد، ومظهر من مظاهر تقبل الآخر ضمن حدود الحريات والالتزام بالقوانين والضوابط التي يفرضها الحاكم.

ومن القضايا الأنثروبولوجية التي تناولها ابن سعيد في المنصة؛ قضية الهجرة والنزوح والعلاقة مع الآخر، ولعل الموقع الجغرافي للقاهرة وتوسطها بين المشرق المغرب ومرور النيل بضواحيها، وأصداء دولة المعز، جعلها

مركز عبور بين المشرق والمغرب، أو مقصد التوطن للباحثين على حياة مستقرّة بعيدا عن القلاقل والثّورات التي عرفتها الإمارات الإسلامية حينها، أو تُجارا لجأوا إلى القاهرة للبيع والشراء.

ولقد نقل لنا ابن سعيد صورة عن كيفية التعامل مع الوافدين المغاربة، وتمييزهم عن غيرهم، " فالفقراء لا يُعترضون بالقبض للأسطول إلا المغاربة، وذلك وفقا عليهم لمعرفتهم بمعانات البحر، فقد عمّ ذلك من يعرف معانات البحر منهم ومن لا يعرف" (الاندلسي، 1970، صفحة 30)، وينقسم هؤلاء المهاجرون إلى فريقين إما أغنياء أو فقراء، ولكل منهما سبيل في المعاملة يختلف عن الآخر وفي كل سوء، " فان كان المغربي غنيا طوبل بالزكاة وضيق عليه أنفاسه حتى يفر منها، وإن كان مجردا فقيرا جعل في السجن حتى يحين وقت الأسطول" (الاندلسي، 1970، صفحة 30)، ولم يوضح ابن سعيد أسباب ذلك، وهل يمكن القول انه بسبب التحول في علاقة الدولة الفاطمية إلى الفرس، فأصبح أصل الرفض والعداء عقائدي؟.

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية التي تنقلها منصة القاهرة، المآكل والمشارب، والمنتجات الفلاحية وأنواع الإزهار ومظاهر الطرب والترف وعيش المتناقض بين الالتزام والمجون، فنجد المطعم القاهري زاخر بأصناف المأكولات المتنوعة فعرض ابن سعيد ما اشتهر من ذلك في القاهرة ومقارنته مع نظيراتها وخاصة في الشام أو بلاد المغرب، ومن بين أصناف المآكل التي أوردتها في المنصة الدميس والصّير (السكمك المملح) والصّحناء والبّطارخ (بيض السمك)، ومن الحلويات الورق المنصوري، والنّيدة وهي حلاوة القمح، أما المشارب فنجد عصير العنب والتين وكذلك عصير القمح ويسمى المزر الأبيض وهو شراب العامّة، وكثير ما تُستعمل عصائرها للسكر وهو ما يسبب غلاء أسعارهما وتُدرتهما.

ومن أطايب أرض القاهرة الرمان والموز والتفاح والخوخ والبطيخ الأصفر والأحمر، وفيها من أنواع الأزهار ما أنس وحشة ابن سعيد وهذا نار اشتياقه لبلاد الأندلس، وخفف عليه ألم الغربة، فعدد منها النّرجس والنسرین والنّيلوفر والورد والبنفسج (الاندلسي، 1970، صفحة 29)، فكان إذا ضاق عليه فضاء القاهرة يخرج إلى حيث البرك والخضرة ومناظر الأزهار التي تبرّد وجع الفراق وألم الصبابة والبعد، وتحدث في النفس الطرب والانتشاء وتحبي باعث الإبداع والبوح وكثيرا ما كان ذلك برفقة الصّحبة الأدباء.

إضافة إلى انتشار الغناء وآلات الطرب والرقص دون ما تضيق أو منع، وذيوخ الموبيقات من شرب الخمر وتبرج العواهر ومصاحبة المردان، وربما هو المصوّغ لانتشار أنواع جديدة من الشعر كالמושحات والذوبيات وشعر التغزل بالمردان، وهذا يوثق لوضع دال على نوع من الحراك الثقافي المشكل لوجه القاهرة .

من خلال هذا كله يمكن القول أن ابن سعيد من خلال المنصة ، مسح أنثروبولوجيا جزءا من الحياة الاجتماعية والثقافية للإنسان القاهري، مبرزاً تشكل حياة مدنية جديدة مختلفة في حيثياتها ومعالمها وعلاقاتها مغايرة أحيانا لبيئات مجاورة لها، وإن كانت نواة نبتها وبذرة خلقها ومهد الإنسان المؤسس لها، واقفا على بناء مدينة جديدة بالمفهوم الأنثروبولوجي.

4.5. ملامح الأنثروبولوجيا الاقتصادية:

مما نقله ابن سعيد عن المجتمع القاهري الأنشطة الإنسانية المختلفة ، والمتعلقة بكسب العيش والسعي وراء الحياة الرغيدة والعيش الكريم، مواكبة لمتغيرات المجتمع وتطورات المدينة، وكذلك ضمن المفارقات الطبقة بين أفراد المجتمع الواحد ما يمكن أن يطلق عليه الأنشطة الاقتصادية أو الحياة الاقتصادية، وبمنظور أنثروبولوجي وصف تلك الظواهر وتتبعها والوقوف على الأسباب الداعية إليها ورصد النقائص التي تعترضها وسبل المعالجة ملتزماً بمبدأ رصد الظواهر بموضوعية ودقة واستنتاج القوانين التي تحكمها.

ولقد تناول ابن سعيد الأنشطة الاقتصادية في القاهرة من أوجه عدة، فعدد الوظائف والحرف والأنشطة التي يقوم بها السكان، كالتجارة وهي كثيرة على اختلاف مستوياتها بين تجارة الخواص والتي تكون في الخانات والقيساريات، "التي يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك" (الأندلسي، 1970، صفحة 27) ، وتجارة العوام التي تكون في الأسواق العامة، أما الوظائف التي يعتاش منها الفضلاء فهي قليلة وكذلك العطاءات، إذ " المعاش فيها متعذرة ندرة لاسيما أصناف الفضلاء، وجواميك (العطاءات) المدارس فيها قليلة كدرة (الأندلسي، 1970، صفحة 28)، وهو الأمر الذي جعل ابن سعيد يستصعب العيش فيها وجعله البعض متحاملاً في الحديث عنها، وممن اختص بالوظائف اليهود والنصارى في الطب وكتابة الخراج، وهنا يتبادر إلى ذهن القارئ سؤال حول علاقة اليهود بالدولة الفاطمية في تقلد هؤلاء هاته الوظائف المهمة؛ أهو الكفاءة أم طول اليد في دهاليز الدولة؟ ، أما الوظائف الهامشية لعامة الناس، فنجد الحمالة، ودكاكين الطباخين، والصناعات الحرفية "مطابخ السكر .. وصناعة الأنطاع (بساط من الجلد) ... واللكرانات (ألبسة للأمرأ) ... وخرائط الجلد (حقائب) ... والقسي (أنواع من القماش) " (الأندلسي، 1970، صفحة 29) ، وهذا كله يعبر على التنوع الاقتصادي والحركية والنشاط في الأعمال الحرة والأنشطة الفردية التي تحدد نوع الاقتصاد السائد حينها في مدينة القاهرة.

أما العملات المعتمدة في المعاملات التجارية والمفاقة بينها أو ما يسمى اليوم بصرف العملات، فنجد تعامل أهل " القاهرة والفسطاط بالدرهم المعروفة بالسوداء، كل درهم منها بثلاث الدرهم الناصري وفي المعاملة بها شدة وخسارة ومخاصمة بين الفريقين " (الأندلسي، 1970، صفحة 27)، ويرجع ذلك أساساً للفرق بين العملتين كما

يعلل التباين في الأسعار بين الجهات ضمن منطقة الحكم الواحدة ، مما يجعل ذلك مدعاة للتحليل الاقتصادي المنطقي لهذا التباين، كما يشير إلى أهمية المرافق الرابطة بين مراكز الإنتاج ومناطق التسويق والاستهلاك مثل : الطرقات والموانئ والأسواق، فهي من بين المظاهر الحضرية للمدينة والأسباب المؤدية لفوارق الأسعار، ويبين ذلك من خلال عقد مقارنة بين الفسطاط والقاهرة ، إذ " الفسطاط أكثر أرزاقا وارضص أسعارا - ويعلل لذلك بقرب الفسطاط من النيل باعتباره سبيل إيراد السلع -، فالمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويبيع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة " (الاندلسي، 1970، صفحة 27).

والظاهر أن ابن سعيد قد تنبه إلى أسس هامة لبناء الاقتصاد، من خلال رصد ووصفه للحياة الاقتصادية في القاهرة، فجعل الأعمال الحرة والأنشطة الاقتصادية غير الحكومية أساس الحركة الاقتصادية وأبواب توفير فرص العمل كبديل للوظائف الحكومية ، والبناء النقدي والصرفي أساسا في يسر وعسر المعاملات التجارية، وكذلك المرافق والمنشآت والبنى التحتية أساسا هاما للحركة الاقتصادية من طرق وموانئ وأسواق ومحلات إقامة ، وكل ذلك نتاج الاستقراء والمراقبة والتتبع والمعايشة والانصهار في المجتمع القاهري.

5. خاتمة:

في بداية الختام نلفت نظر القارئ الكريم وخاصة البحتة المهتمين بالمجال التراثي، إلى شخص ابن سعيد الأندلسي العلم الفذ ، المؤرخ ، والجغرافي ، والأديب الألمعي والناقد البصير، والرحالة المكين، صاحب التأليف القيمة منها المحقق المستحق للقراءة والاستفادة، والمخطوط المرجو تحقيقه ودراسته، والمفقود المحتاج للتتقيب والنش.

إن مؤلفات ابن سعيد الأندلسي تشكل تقاطعات عديدة مع مختلف العلوم، والمناهج؛ قديمها وحديثها، نظرا لعلو كعب صاحبها وسعة اطلاعه وتبحره في مختلف العلوم والفنون، وكثرة مخالطته للعامة والعلية، وتجوّله الذي مكّنه من الاطلاع على ثقافات مختلفة احتكاكا ومعايشة.

لقد جسّد نص (المِنْصَة) تقاطعا لافتا مع علم الأنثروبولوجيا من الناحيتين المعرفية والمنهجية وان كان سابقا لعصر نشأته وظهوره، متمثلا في النقاط التالية :

- من الناحية الميدانية توفرت لابن سعيد ظروف البحث الأنثروبولوجي الميداني؛ المعايشة، العلم والمعرفة الملاحظة والتوثيق

- تتبعه لمراحل البحث الأنثروبولوجي حين دراسة المجتمع القاهري، حيث:

- تناول الظواهر الاجتماعية تناولاً موضوعياً بعيداً على الميولات الشخصية والأحكام المسبقة.
 - الدراسة الدقيقة للظواهر ورصدها حينها.
 - التوصل إلى القوانين التي تخضع لها الظواهر من خلال دراستها واستقرائها.
 - الإلمام بالعديد من مواضيع الدراسة الأنثروبولوجية: العلاقات الإنسانية، والمدينة وإعادة تشكيلها، البنى الاقتصادية الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمع القاهري، البنية العمرانية، فخاض في تفاصيلها ورصد تغيراتها ومقارنتها واتخاذ الأحكام العامة حولها، مثل موضوع تشكل مدينة القاهرة والعلاقات الإنسانية فيها وطابعها العمراني ومركزها وهوامشها وأنشطتها الاقتصادية ونقل المركزية إلى القلعة بجانب الفسطاط، وإصدار أحكاماً وتعليقات مبنية على استقراءات ورصد التغيرات فيها.
- إن نص المنصة ما هو إلا مقتطف من حُلل باهرة أنتجها ابن سعيد الأندلسي، تشكل مجالا خصبا للدراسة والبحث والإحياء.

6. قائمة المراجع:

1. ابن سعيد الأندلسي. (1970). *النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة: دار الكتب. مصر.*
2. ابن سعيد الأندلسي. (1987). *رايات المبرزين وغايات المميزين: دار طلاس. دمشق.*
3. ابن سعيد الأندلسي. (1982). *نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب: مكتبة الاقصى. الاردن.*
4. احمد بن محمد المقرئ التلمساني. (1967). *نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب: دار صادر. بيروت.*
5. اندريه ريمون. (1990). *القاهرة تاريخ وحضارة: دار الفكر. القاهرة.*
6. حداقة نجاة محمد سالم. (2019). ابن سعيد الأندلسي في مؤلفات صلاح الدين الصفدي . مجلة الجامعة الاسلامية للدراسات الانسانية ، المجلد 27 ، العدد 2 ، 2019 ، صفحة 405/382.
7. عاطف وصفي. (1971). *الانثروبولوجيا الاجتماعي: دار النهضة. بيروت.*
8. عثمان لكعشي. (6 ديسمبر، 2019). المدينة افقا انثروبولوجيا . <https://mana.net>. تاريخ الاسترداد 16 فيفري، 2024، من معنى.

9. كولايّن ، مارك اوجيه، جان بول. (2008). *الانثروبولوجي*: دار الكتب الجديدة. بيروت.
10. لسان الدين بن الخطيب. (1977). *الاحاطة في اخبار غرناطة*: مكتبة الخانجي. القاهرة.
11. محمد الانتصاري. (1966). *ابن سعيد الاندلسي حياته وآثاره*: الدائرة العربية بالجامعة الامريكية. بيروت.
12. محمد بن شاکر الکتبي. (1974). *فوات الوفيات والذيل عليها*: دار صادر. بيروت.
13. مسشال اجيي. (1440هـ). *انثروبولوجيا المدين*: دار الفيصلية. السعودية.
14. مصطفى تلوين. (2017). *مدخل الى علم الانثروبولوجيا*: كلمة. لبنان.